دفاع الكلاب

هذه قصة تؤيد ما طالما قيل عن ذكاء الكلب وفطنته بعثة بها كاتبة انكليزية الى مجلة انكليزية جديدة اسمها "جراند مجزين" وقالت انها صحيحة كما رويتها تماماً واردفتها بحاشية عن لسان الكلب المذكور فيها يدافع بها عن نفسه واخوانه الكلاب

القصة

كنت منذ سنوات قلائل مقيمة في مدينة سان جان دي لوز على ساحل بحر بيسكي في اسبانيا وكان منزلي على رصيف قرية سيبور وهي قرية صغيرة لصيادي السمك يعيش المرء فيها عيشة البساطة والاقتصاد آمناً عيون الراصدين وانتقاد المنتقدين . وجرت عادتي ان اخرج للنزهة كل يوم بعد طعام الصباح وآخذ معي غدائي وكتاباً اتسلى به في ساعات خلوتي وانفرادي . وكان لجيراني كلب طالما تمنيت ان يصحبني في غدواتي وروحاتي وكنت كلما مررت على باب منزل اصحابه أراهُ مضطجعاً امام الباب يراقب الصيادين وهو يقظان نائم فادنو منهُ احياناً وأمر يدي عليه تودداً فينظر اليَّ نظر مكترث لي بل ربما ادهشهُ ما كان يراهُ من جرأتي عليه وتحرشي به لغير معرفة سابقة فيرمقني من طرف خفي كأنهُ يقول في نفسه "كرم الخلق يقضي عليَّ بالسكوت . ما هي الاَّ امرأة"

وخرجت ذات يوم على جاري عادتي فلما رآني نهض من مضجعه وهو يتثاءب ومشى خلفي حذاء الرصيف فسرَّني مجاملتهُ لي ولكني لم اشأ ان أُغريهُ بترك بيت صاحبه ومرافقتي الى حيث اقصد فوقفت واشرت اليه ان يعود من حيث اتى ولكنهُ لم يعبأ باشارتي بل وقف ينظر اليَّ ولما رآني أطلت وقوفي أقعى وجعل يتثاءب فاستأنفت مسيري وكنت اتوقع عودتهُ من آن الى آن لكنهُ ظلَّ سائراً ورائي

وما زلت اسير وهو يتبعني قريباً مني حتى بلغنا غابة كثيفة فجلست استريح قليلاً فدنا مني واخذ يلحس يدي وقف منتصباً على رجليه وينظر في وجهي نظرة ملؤها العطاف اليَّ وتحذير من خطر يتهددني لو كنت افقه . ولما رآني لا أُبالي بحركاته ولا ادرك لها معنى عمد الى آخر حيلة لديه وهي انهُ تقدمني في طريقي لعلهُ يرشد خطواتي حتى بلغت عين ماء وسط الغابة وهي المكان الذي كنت اقصدهُ لقضاء نهاري فيه . فاضطجعت في بقعة ظليلة طلباً للقيلولة ولم اكد أُغمض اجفاني حتى طفق يهرُّ هريراً متقطعاً ويدوس ثوبي ويدني فاهُ من وجهي ويدور حولي مسرعاً وهو لا يستقرُّ على حال ولا يلوي على شيء ولا يحوّل وجههُ عن

داخل الغابة حتى لم يسعني النوم . فنهضت مغتاظة وقلت لهُ "هاكَ بنا نرجع الى البيت اذًا" ثم مشيت وتبعني وكان يدور حولي حينًا بعد حين وهو يهرُّ . فلما خرجنا من الغابة وتقدمنا نحو البحر تغير سلوكهُ بغتة وتأخر عني كأن لم يكن شيء . فحرت في ما ابداهُ من الحركات الغريبة لاسيما وانهُ لم يكن في ذلك المكان خطر من حيوان مفترس ولا لص قاطع طريق . ثم انهُ لم يصحبني لتعلقهِ بي ولا لميل خصوصي اليَّ فاننا لم نكن قد تصاحبنا قبل هذه المرة . فما الذي حملهُ اذًا على فعل ما فعل

وبينما كنت افكر في الامر سمعت وقع حوافر خلفي فتطلعت واذا بي أرى نفرًا من الصيادين ممتطين خيولهم يستحثونها نحوي مسلحين بالبنادق والخناجر . فرفع المقدَّم فيهم قبعتهُ وقال "أتسمحين لي يا حضرة المدام وازيل ان اسألك اين كنتِ الآن" فاخبرتهُ فصاح الرجال حينئذٍ بصوت واحد وقال الاول "ولكنكِ لم تمرّي في الغابة على كلّ حال" فقلت "بل مررت فيها وجلست هنيهة قرب عين الماء" فنظر اليَّ نظرة الوجل المضطرب وقال "اذًا كان وجود الكلب معك رحمة من الله والاَّ لوقعت فريسة بين مخالب ذئب كاسر ساقهُ الجوع من الجبال الى مزرعة قريبة من هذا المكان وحاول اختطاف ولد منها فطاردناهُ الليلة الماضية الى هذه الغابة ولا يزال فيها . كان الواجب ان تعلمي ذلك ولكن من كان يخطر على بالهِ ان فتاة تقصد هذا المكان وحدها . ومهما يكن فان وجود الكلب معك عناية ربانية بك" . ثم ودعني وسار في سبيلهِ

اما انا فعدت الى منزلي بقلبٍ خافق وقد حرت كيف عرف الكلب بوجود الذئب في تلك الغابة وعرف بعزمي على المرور فيها وهو في منزل صاحبهِ فتتبعني ليكون حارسًا لي

واغرب من ذلك كلهِ انهُ لما بلغنا القرية اختفى عني . وفي صباح اليوم التالي اخذت لهُ بيدي قطعة لحم وعظم اعترافًا بفضلهِ وجزاء لهُ على صنيعهِ فلم يحفل بي بل كانت نظرتهُ اليَّ هذه المرة مثل المرّات السابقة . ولم يصحبني بعد ذلك ولا أبدى اقلَّ حركة تدلُّ على انهُ يعرفني

وبعد ثلاث ساعات من التقائي بالصيادين اهتدوا الى مكان الذئب وقتلوهُ عند العين التي جلست قربها والكلب يحرسني وينبهني الى الخطر وانا لا انتبه ولم يكن تركي لتلك البقعة النضرة الاَّ رغمًا مني وتخلصًا من شدة تجرشهِ بي

الحاشية بلسان الكلب

"اذا نظرنا نحن الكلاب من ذرى ادراكنا الى ضيق مدارك الانسان لم يسعنا الاَّ الغيرة منهُ على ما لهُ من الوسائل التي ليست لنا . فلو ان كلبًا منا نال نصف المزايا التي ينالها

احط الناس من التربية والاسفار وما شاكل لبات الانسان صاحب المحل الثاني في المملكة الحيوانية ولارتق الكلب الى المحل الاول فتلقى اليهِ مقاليد امور الكون ويسخّر الانسان لتنفيذ اوامرهِ العالية التي يقدحها زناد فكرتهِ السامية

ومن هؤلاء الآدميين رجل اسمهُ الاستاذ رومانس ابان بالرسوم نشوء العقل وارتقاءهُ منذ اول ابتدائهِ في البروتوبلازم حتى بلغ منتهاهُ في دماغ الانسان المتمدّن. وكنت ذات يوم في مكتب سيدي فرأيت كتاب "ارتقاء الحيوانات العقلي" موضوعًا على مائدة القراءة وفيهِ الرسوم المشار اليها. فنظرت فيها فسرّني ان أرى ان الكلب يساوي في درجة ارتقائهِ العقلي طفلاً بشريًا عمرهُ ١٥ شهرًا. اما انا فاقول — وقولي مبنيٌّ على الملاحظة والمراقبة — انهُ حالما يصير طفل الانسان ينظر الى ما حولهُ يشرع ابوهُ وامُّهُ واخوتهُ واخواتهُ وعماتهُ وخالاتهُ وابناؤهم وجماعة الاصدقاء والزائرين في ترقية قواهُ العقلية ولا يتركونهُ وشأنهُ الاَّ اذا كان نائمًا. فتراهم يعرضون كلَّ يوم اشياء جديدة امام عينيهِ ويكلمونهُ بلا انقطاع ويغذون دماغهُ كما يغذون جسمهُ. واذا أبدى اقلَّ اشارة تدلُّ على الفهم صاحوا فرحًا ورقصوا طربًا واستعادوهُ تجربة لهُ. وحالما يقوى على المشي والكلام يرسلونهُ الى المدرسة ليتعلَّم

هذه حال طفل الانسان فما حال جرو الكلب. فانهُ ما من احد ينتبه لما يبديهِ من دلائل الفهم واذا عوى لم يصغِ احد الى عوائهِ. ولا سبيل لهُ الى سماع احاديث الناس. وطعامهُ بقصهُ الفصفور وغيرهُ من مغذيات الدماغ. ولا يعلَّم الاَّ الالعاب المسلّية. ومع ذلك كلّهِ من الامور التي تثبّط الهمم والعزائم نرى جرو الكلب يبلغ مبلغ الانسان في الفهم بلا اقلِّ مساعدة لترقية قواهُ العقلية. وعندي انهُ لو أُتيح لنا ان نُعامل منذ ولادتنا كما لو كان اولادنا مساوين لاولاد الانسان في مداركهم وأُرسلنا الى مدارس خاصة بنا ونحن صغار لسبقنا متخرجي كليات العلم والفلسفة من الآدميين بمراحل كثيرة

اما قصتي السالفة الذكر فلاسرَّ فيها البتة فاني علمت بنزول ذئب من الجبال من تردّدي على النادي الخاصّ بنا. فانهُ ما من كلب يعرف قدر نفسهِ يترك يومًا يمرُّ ولا يجتمع بصحبهِ واخوانهِ للتحدث باخبار البلدة وامورها. فقد شهدتُ اجتماعًا حضرهُ كلاب الصيادين وثلاثة كلاب من المزارع المجاورة لنا. وكان بعضهم يعرف الغابة التي اختبأ الذئب فيها ولو ان الصيادين شاوروهم لدلُّوهم على مكمنهِ قبل اهتدائهم اليهِ بعدة ساعات. وقد اخبرنا احدهم ان الفتاة الانكليزية كانت تتردد على عين الماء وتجلس هنيهة وكتابها في يدها وانهُ مرت عدة ايام ولم تزر ذلك المكان وتمنّى ان لا تقصدهُ بعد حتى يقتل الذئب. وفي اليوم التالي راقبتها

فلما رأيتها والكتاب في يدها قلت انها تقصد الذهاب الى تلك الناحية وانما قلت ذلك قياساً لما ببني جنسها الذين تقودهم غرائزهم العمياء الى دق رؤوسهم بالجدران بلا سبب ولا داع

وهناك امر آخر يجب الانتباه لهُ وهو شدة عناد المرأة . فلو ان رجلاً من بني جنسها اقسم لها ان في الغابة ذئباً ليقيت على عزمها ولم تحد عن رأيها مهما كان شأنهُ خطيراً في عينيها ولما كنت اعلم ذلك منها لم احاول تحويلها عن عزمها حتى بلغنا الغابة ففعلت ما فعلت ولكنها لم تفهم مرادي وذلك من الغرابة بمكان لاني موقن ان عينيَّ كادتا تنطقان وان أبلد اصدقائي الكلاب فهماً كان يدرك مرادي لو كان مكانها ولكن هذه الآدمية "السامية الادراك" كانت بكماء عمياء

هذا وقد قصصت عليكم باقي القصة والنتيجة التي بانت لها غريبة هي ايسر الامور فهماً فايُّ الامور يحبّب اليَّ معاشرة شخص على هذه الدرجة من البلادة والبله . ألم يكفني اني مشيت معها ساعاتٍ وتركت نومي المنيَّ صباحاً فأ الداعي الى نصيحة نفسي مرة اخرى بلا سبب . أُفٍّ للبشر لا طاقة لي على الصبر عليهم . آه لو كنت اتكلم"

انتهت القصة وما عقبتهُ الكاتبة عليها من دفاع الكلب واحتجاجهِ . ويرجح لنا ان راوية القصة واهمة حلمت حلماً او هجست هاجساً ثم اعتقدت ان ما حلمت بهِ او هجست امر وقع لها حقيقة فسطرتهُ بنية سليمة وعقبت عليهِ والتعقيب حسن ولو لم يحتمل البحث العلمي

النمل وحقائق جديدة في طباعهِ

النمل اقدم طوائف الحيوان حضارة فان نمل جنوبي افريقية كان قبل ان ظهر الانسان على الارض بعصور كثيرة يبني قصوراً باذخات من الطفال ويأسر العبيد ويسترقُّ الاسرى ويستدر اللبن من الانعام ويشنُّ الغارات ويشهر الحروب على الطوائف المعادية. كان الاول في ذلك ولعلهُ يبقى الاخير فانهُ يربي صغارهُ ويقيم مبانيهُ على مدافن امم كثيرة مضت واضمحلت وهو لا يزال يجدُّ ويدأب في عملهِ كما لو كان هذا الكون جديداً في خلقهِ

وليس بين المخلوقات الحية ما يشابه النمل فانهُ بعيد كل البعد عن بقية الحشرات كأنهُ هبط الى الارض من سيار آخر فهو لا يعبأ بالشمس ولا بالنهار ولا بالصوت ولا بالكلام . اعمى اصم ابكم لا ينام ولا يلعب بل يعمل على الدوام في عالم السكوت والظلمة المدلهمة

في نيويورك سيدة اسمها مس ادال فيلد قضت ست سنوات كأنها عائشة بين النمل فانها